

النسق العمراني التقليدي بمنطقة وادي ريغ وتحولاته

د/خليفة عبد القادر

جامعة ورقلة

المخلص :

Résumé :

The region of Wadi Righ, part of the Lower Sahara, is a space which did not have what it deserves in domain of studies and of researches, , to be a fecund field, historically, in part the intensity of its historical events, and ecologically or else the urbanistic and social feature of its space. In this study, we concentrated on the urbanistic space through a general reading of the style of which consists this integrated space, In his traditional and authentic version produced by the generations, of her inhabitants, which followed one another, On the basis of the harmony of the environment and of the social construction, then the processes of metamorphosis and the cutting. It is an attempt to limit this space in its line of evolution by being inspired by the experience of a field work, in the field of a global anthropological research, in other words, consider the event in her global form, after the reconstitution of his components, starting from historical, anthropological, social and geographical studies.

Key words: Wadi Righ; urbanistic space; traditionel urbanistic; social change; urbanitic Anthropologie.

منطقة وادي ريغ جزء من الصحراء الجزائرية المنخفضة، مجال لم يستوف حقه من الدراسة والبحث، بالرغم من كونه ميدان خصب، تاريخيا من ناحية كثافة أحداثه التاريخية، وبيئيا وأيضا خصوصية المجال العمراني والاجتماعي ركزنا من خلال هذه الدراسة على المجال العمراني من خلال قراءة عامة للنسق الذي تشكل من خلاله هذا الفضاء المتكامل، في صيغته التقليدية الأصلية التي أنتجتها الأجيال المتعاقبة من سكانه على أساس من التناغم البيئي والبناء الاجتماعي. ثم عمليات التحول والإنقطاع. هي محاولة لمعلمة هذا المجال في خط تطوره مستلهمين تجربة عمل ميداني في حقل بحث أنثروبولوجي، شامل أي النظر للظاهرة بشكلها الكلي بعد تجميع أجزائها من الدراسات التاريخية الإثنوغرافية الاجتماعية والجغرافية.

كلمات مفتاحية: وادي ريغ، المجال العمراني، العمران التقليدي، التحول الاجتماعي، أنثروبولوجيا حضرية.

مقدمة: البيئة مجال صحراوي "رطب" وهش

إن وادي ريغ المنطقة الواحاتية الرطبة في وسط صحراوي شاسع أعطاها التميز المناخي، رغم هشاشة توازنه الطبيعي كمنطقة مغلقة تستفيد من مؤثرات محلية في التضاريس ومصدر المياه الجوفية الذي لعب دورا هاما في الحياة الزراعية سلبا وإيجابا في نفس الوقت مما يضيف عليها الطابع الهش والذي كان سببا دوما في خلق الواحة والقضاء عليها من جهة أخرى، ويستمر وحتى الآن من خلال ظاهرة صعود المياه الجوفية والذي وجد الحل شبه الطبيعي له من خلال قناة تصريف وادي ريغ، الشيء الذي لم يوجد في منطقة الوادي سوف وورقلة القريبتين واللذان تطلب إنقاذهما مشاريع ضخمة ومكلفة.

مجال وادي ريغ العمراني، الأصول النسقية

إن العمران في الصحراء قديم قدم الإنسان نفسه، قدم المجتمعات التي استوطنت الصحراء. لدراسته يتطلب الأمر نظرة فاحصة ومتأنية لاستخراج الديناميكية التي طبعتها والمنطق الذي بني عليه. في مناطق الصحراء قد يساعدنا هذا في فهم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كان يؤويها هذا العمران الذي هو في الأصل نتاج ثقافي مادي لهذا المجتمع، إنطلاقا من المفهوم الاجتماعي - الخلدوني¹ - الواسع للعمران.

تميز العمران في وادي ريغ منذ القديم بتركز كبير في الكتل الرئيسية، التي تتفرع إلى مراكز صغيرة تتحكم في وجودها ووظائفها العوامل الطبيعية الخاصة بهذه المنطقة المطبوعة بتركز نقاط الماء العنصر الأساسي في أي استقرار في هذه المناطق. من خلال تمقطبات متغيرة، المجال في الصحراء تأثر بالتاريخ بدرجة كبيرة. إن المعطيات البيئية والإيكولوجية والعوامل الجغرافية، ودرجة الثبات السياسي، والتقسيمات الجهوية للأقاليم و أيضا شكل المسار الاقتصادي، وعادات الهجرة وحركات الرحل، كلها عوامل شكلت المجال في الصحراء. يتحتم لفهم ذلك ربط الخصوصية المحلية جغرافيا وبيئيا، بالبيئة الجهوية لكل منطقة الشمال الشرقي للصحراء الجزائرية. و حتى من وجهة النظر التاريخية فإن نفس المنطق يفرض نفسه، فالثقافة المحلية للسكان القدامى من مزارعي النخيل وبناء القصور قد تأثرت كثيرا بالحركات التاريخية على المستوى الجهوي

وأيضاً على مستوى أحداث المغرب على العموم، لكنها ترجمت في الغالب على المستوى الجهوي².

مع تبلور دور قوافل التجارة التي تجوب الصحراء تتطور المدن في الصحراء وتجذب اهتمام الرحالة الجغرافيين القدامى، ابن سعيد، البكري، الإدريسي. بتموقع المدن والقصور على محاور الاتصال، شمال / جنوب و شرق / غرب، تبرز أهميتها التاريخية منذ حوالي القرن العاشر حتى القرن التاسع عشر، كمحطات لربط قوافل التجارة³. كما كان للصراعات الدينية والاثنية التي وقعت في تاريخ الصحراء دور كبير في السيطرة على هذه المحاور التجارية و توجيهها. لكن وجود المدن والقصور لا يعود فقط إلى هذه الوظيفة، كمناطق ربط لطرق التجارة، هي نظم أيضاً سكناً مستقرين حضريين تربطهم علاقات وطيدة وتكاملية مع القبائل البدوية، والرحل المحيطين بهم يعيشون باستغلال زراعة النخيل، مميزاتهم المجالية والاقتصادية والاجتماعية تجعل منهم مجتمعات أصيلة ذات تقاليد حضرية عريقة.

المدن التاريخية والقصور

تظهر الميزة الأولى لهؤلاء السكان في تنظيمهم للمجال وطرق استغلالهم للمحيط، في شكل تجمعات ترصفت على طول الوديان في شكل سباحات. chapelets ، فالشكل العام الذي يأخذه كل تجمع مستقر في الصحراء عموماً هو « القصر الصحراوي Ksar. " والذي هو بالتعريف قرية تقليدية صحراوية⁴ هذا التجمع من البنايات السكنية المحمية بالدرجة الأولى ذو الحجم المتغير تتطور حوله واحة نخيل يعيش من أجلها وتعيش من أجله تتمايز هذه التجمعات نوعياً بحيث تسمح الظروف لإحداها بالتطور و البروز، ويبدأ بذلك التصنيف بين " القصر القرية " و " القصر المدينة " بهذا التدرج تبدأ شبكة في التشكل، شبكة جهوية من القرى والضياح Bours حول مدينة سمحت لها ظروفها التاريخية والإستراتيجية بالنمو لتأخذ وظائف تجارية مركزية لتصبح قطب هذه الشبكة الذي يصبح الوادي أو الحوض الرطب وسيلة ربطها، وهو ما قامت عليه جل أقاليم الصحراء، مثل شبكة الزيبان وعاصمتها بسكرة، وادي سوف و وادي ريغ عاصمته تقرت و وادي ميزاب وعاصمته غرداية⁵.

تلعب العوارض الطبيعية خاصة المتعلقة بوجود الماء، و أيضاً الأحداث السياسية والصراعات بين المدن و تدخلات الحكم المركزي المحيط بها، دوراً مهماً في نشوء قرى

واختفاء أخرى من الوجود. والميزة الأولى لهذه التجمعات في الغالب تكون القصور محاطة بسور أو بواحة النخيل،⁶.

إن الحجم الحقيقي لهذه القصور و تطوره في فترات التاريخ المختلفة يصعب معرفته في ظل شح المصادر المكتوبة، لكن الذي قد يساعد في تحديد مكانتها هو الدور الذي لعبته، لأن الحجم هو بالضرورة نتيجة ديناميكية نشاطها وإشعاعها، إن دورها يتمظهر ماديا في مورفولوجيتها وتركيز بناياتها ونشاطها، وأيضا علاقاتها مع محيطها الخارجي، حجم نخيلها وجنانها وعلاقاتها مع القبائل الرحل هي المحددات الأساسية لمكانة المدينة الصحراوية. في هذا النسق المجالي العام الذي يميز بين القرية و المدينة، فالقرية أو القصر تبدوا كتجمع دائم الاستقرار ذو حجم متواضع نسبيا والذي يوجد بواسطة أو من أجل محيطه الفلاحي، هذه التجمعات تأخذ الطابع القروي Villageois عندما يطفو قصر من هذه القصور نتيجة ظرف من الظروف الاقتصادية أو التاريخية ويتعاضد دوره يتطور كمدينة ويصبح في هذه الحالة هو القطب الذي يهيمن على بقية القصور المجاورة له ويكون شبكة وبين المستوى الأول كقرية والمستوي الثاني كمدينة تحدث الكثير من الإنقطاعات والتحويلات وتتمايز داخله المستويات الوظيفية والاجتماعية.⁷

من خلال مختلف الأوصاف التاريخية التي تحدثت عن مدينة تقرت التاريخية مستاوة⁸ التي هيمنت على شبكات قصورها المجاورة والتي تتميز بتشابه كبير في ميزات المجال المبني وهيكلته، في معظمها تنطبق عليها أوصاف المدينة العربية الإسلامية، تتكون أساسا من أنسجة عمرانية مهيكلة انطلاقا من مجموعة من التجهيزات المركزية، المكان المركزي حول المسجد أو الجامع الكبير، السوق الرئيسي والمتاجر أوحوانيت الصناعة اليدوية التقليدية، الشوارع الرئيسية المنطلقة من هذه الفضاءات العامة هي شريان الحياة الاجتماعية العامة بإتحادها مع الساحة العامة تشكل المجال العام PUBLIC مجال المرور والنشاط والانتقاء. القرى و المدن في مجملها تموقعت على مناطق مرتفعة - Pitons - حسب ما تسمح به طبوغرافية المنطقة، تأخذ الشكل الدائري في معظمها، عند قراءة هيكلتها نحس أن أولوية مخططها كانت مسألة الدفاع، بسبب الصراعات المتكررة التي شذتها المنطقة في فتراتها التاريخية المتعاقبة⁹ الإثنية و أيضا المتعلقة بعملية الإنتاج الزراعي، في تلك الأثناء كان السكان يعرفون مزايا البناء في الأماكن المرتفعة وحتى وإن حرمتهم طبوغرافية المنطقة المسطحة المنبسطة من هذه المواقع المنيعه، قاموا

بتعويض ذلك بردوم من أجدع النخيل نجده مازال موجود أثره في منطقة تماسين (10 كلم جنوب تقرت) وتمرنة (قرب جامعة شمال تقرت) ولمحاولة فهم حركية هذه التجمعات ونشاطاتها ونظامها الاجتماعي سنحاول تلخيص النظرة إليها من خلال ثلاثة مجالات هامة في نظرنا، المجال السياسي، الديني والاقتصادي.

النسق الفلاحي، الزراعة في مستويات

المورد الأساسي لهذه القصور بالدرجة الأولى هو إنتاج التمر، إضافة إلى منتجات موسمية محلية، هذا الإنتاج الذي سمح للمنطقة بالتبادل التجاري مع مناطق أخرى في الشمال والجنوب وسمح أيضا بتغطية الحاجيات الأساسية للسكان، كما سمح لبعض المجموعات والعائلات بالثراء، الوظيفة الأخرى والتي لا تقل أهمية في عالم الصحراء هي التجارة والتبادل الجهوي، أحيانا بعيد المدى يصل إلى أعماق الصحراء لربطها بالشمال وبالشرق وبالغرب. إن نظم الري والاستفادة من المياه القريبة من السطح في هذه المنطقة المنخفضة سمح بإيجاد الواحات، امتداد هذه الواحات وكبرها يتوقف على كمية الماء المتوفرة من المنابع والعيون وعلى مساحة الأرض الصالحة للزراعة أي القليلة الماء الصاعد والملوحة، امتداد وسائل الري وتنظيمه وأيضا يتطلب الأمر إيجاد شبكة من القنوات لتصريف المياه الزائدة والتي قد تتسبب في قتل النخيل، كل هذه التجهيزات والأعمال تطلبت مجهودات مضيئة وخبرة طويلة من الفلاحين، قد نتصور كمية الوقت والجهد الذي تطلبته هذه الأعمال وقيمة هذه الخبرة المتوارثة التي نفقدها مع التحولات الجديدة مثل فقداننا للإرث العمراني والتي لا تقل أهمية عنه.

المحيط الفلاحي وبفعل قلة المساحة الزراعية يتوزع على ثلاثة مستويات عمودية المستوى المرتفع للنخيل البالغة والعالية، المستوى المتوسط للنخيل الصغيرة التي هي في طور النمو لتعوض النخيل القديمة وبعض الشجيرات المثمرة أما الأحواض الأرضية تهيأ للمنتجات الموسمية التي تغذي الأسواق المحلية يوميا. هذه المحيطات خضعت دوما في تاريخها إلى رقابة إدارية وسياسية كفرض الضرائب من القوي السياسية الجهوية أو المحلية، أوحى بشكل مباشر إذ امتلكت الأسر الحاكمة والإقطاعية المحلية محيطات وواحات واسعة أستعمل مردودها الكبير في تمويل القوافل التجارية، والعكس فمداخل التجارة المربحة تستثمر في التوسع الفلاحي¹⁰.

قوافل التجارة والتبادل

عبر طول وادي ريغ إمتدت مراكز تجارية تتفاوت في الأهمية، تعود في قدمها إلى العهد الروماني، فمدينة تقرت في هذا العهد كانت تربط الصحراء وبلاد السودان الغربي¹¹ وإذا كان متوسط مرحلة واحدة من الرحلة يحدد عادة ب50 كلم، فذلك ما يفسر المسافات المتقاربة الآن بين أهم مدن وادي ريغ (المغير، جامعة، تقرت) يجعل منها محطات للقوافل الرحلة من قابس إلى ورقلة كانت تستغرق 15 يوما، 6 أيام من تقرت إلى ورقلة وحوالي أربعة أشهر لعبور الصحراء¹² هذه الرحلات كانت تحتاج إلى الكثير من قوة الاحتمال والصبر وسط هذه الصحراء القاحلة والجافة¹³ تضم هذه القوافل مجموعات من تستعمل أدلاء وحراسا من البدو من قبائل الجنوب. تتحرك هذه القوافل على وقع المواسم، تقرت وتماسين كانتا من أهم المراكز التجارية بالجنوب الشرقي، استعملت هذه المدن العملة مبكرا¹⁴ كان للقبائل دور كبير في هذه العملية في إطار نشاط تكاملي مع سكان الوحات مما ضمن التعايش بين البدو والفلاحين قرونا طويلة من جراء تقاسم العمل. كانت أرباح هذه القوافل التجارية هامة جدا، كان لابد من وجود أسواق تستوعب وتعيد توزيع هذه البضائع، سوق تقرت كان دوما من أهم أسواق الجنوب الشرقي، شكل محطة لقوافل متعددة ، كما أرتبط السوق بإقليم الجريد التونسي والمغرب خاصة مع قوافل الحج التي كانت تصل المنطقة وتتخذها محطة لها

المجال السياسي ومركباته

المجال السياسي يتميز بعلاقة قوة ذو ثلاث مركبات، تهيكّل حول ثلاثة أنواع من الفاعلين **الحكم المركزي** المتمثل في الممالك المختلفة، ثم بايليك الشرق في قسنطينة في عهد الأتراك ثم الاحتلال الفرنسي. **الحكم المحلي** الذي مورس في المدن والذي مثلته العائلات المحلية، شيوخ الطرق الصوفية أو الممالك المحلية فترة بني جلاب أهم فترات الحكم المحلي 1414 1854، غطت فترة طويلة. **والقبائل البدوية**. هذا الحقل ينشط بانتظام بصراعات

لا تنتهي، صراع أو حلف بين عناصره من خلال مركب من العلاقا (بين المدن نفسها، بين المدن والحكم المركزي) .

إن التاريخ السياسي لهذه المدن هو قبل كل شيء تاريخ العلاقات التي تنشأ مع الحكم المركزي علاقة غلبة أو هيمنة، تترجم هذه العلاقة بتحالف أو تقديم ضريبة سنوية،

علاقة حلف عندما يكون الحكم المركزي مهددا بقوى أو ممالك أخرى أي في حاجة إلى تقوية اقتصادية أو عسكرية من هذه المدن أو علاقة تصادم وذلك عندما تحاول المدن أن تتحل من سلطة الحكم المركزي، يرمز إلى هذه العلاقات نظام الضرائب هذه العلاقات المتعددة الأشكال تضاف إليها أيضا العلاقات مع القوى المحلية، وهي الأخرى مهيكلة حول ولايات دينية أو قبلية. إن المنافسة بين مختلف شبكات القصور أو التضاد والعداء بين المدن وشيوخ القبائل، من هذه العلاقات المركبة تتعاقب فترات الهيمنة والإخضاع المدن ومجالها الذي تهيمن عليه، وإدارتها بواسطة عائلات قوية ذات إقطاعية الأرض أو التجارة التي تستمد شرعيتها من المكانة التي تحتلها في حقول أخرى من الحياة الاجتماعية، الحقل الديني (كالهيمنة على عاصمة رمزية قوية التأثير مثل الزاوية التيجانية في تماسين)، النشاط الاقتصادي أو الرقابة على الإنتاج والتجارة أو الحقل السياسي بالنظر لمكانتها في نظر القبائل البدوية)، وأيضا أهمية رصيدها الاجتماعي أي السكان الذين تركز عليهم والذين يؤازرونها. قبل أن تنهيك هذه القصور أو المدن كممالك صغيرة، فترة السلاطين المحليين في القرن الخامس عشر كانت تفرقت تدار من قبل جماعة تكون مجلس محلي من ممثلين عن العائلات الكبيرة الأساسية و السلطة في العائلة التي تعطي المكانة في المجلس تورث من جيل إلى جيل. يمكن أن تحصل تقلبات أو انقلابات قد تحدث اضطرابا في هذا الهيكل. إن حكم بني جلاب في تفرقت ابتداء من القرن 15، و بني مزني في بسكرة يوضح جليا كيف أن قبيلة تقوم ببناء هيبتها الشرعية من أصل شريفي يدعمه الغني الاقتصادي بملكية غابات نخيل كبرى و الرقابة على القوافل التجارية،

ابن خلدون يتطرق في تاريخه إلى هذه القضايا حتى وإن جاءت ملاحظاته في المنطقة مختصرة جدا¹⁵ خلال قرون طويلة كانت هذه المناطق رهانا لصراعات سياسية حادة بين الأسر الكبيرة التي تتقوى كل بدورها مع مختلف ممالك المغرب أو الشرق و قبائل بدو الصحراء لتفرض هيبتها لكن هذه التحالفات مع البدو في كثير الأحيان تكتيكية و مؤقتة. إن علاقات القوى تتأثر بهذا الثلاثي المكون من الحكم المركزي، أرسنقراطية المدن و قبائل البدو و كل مدينة تحاول تأكيد استقلالها و مراقبة منطقتها و أيضا مراقبة طرق و مسالك التجارة المربحة. هذه العلاقة بين المدينة و الفلاحة، المدينة و القرى المجاورة، الحضر و البدو هي غير متساوية ولا مستقرة المدينة في حاجة الى منتجات

الزراعة و أيضا في حاجة الى نشاط البدو كي تستمر في وجودها و تستحوذ على جزء من ثرواتها. من هذه المناوشات التي لا تنتهي القبائل البدوية ضد المدينة والقصور، المدينة في استطاعتها أن تستمد ثروتها من الاستثمار والعلاقات أبعد من محيطها عندما تخترق التجارة البعيدة بذلك تستمد هيمنتها ووضعها المتميز، في الفترة التركية الصحراء تعرف تقلبات جديدة، بايليك الشرق في قسنطينة يركز على بسكرة إمتداده الجنوبي ليقوم له بالرقابة على المنطقة التي تخضع هذه الفترة للسلطة التركية، على امتداد القرن 18 يعرف الصراع بين المدن من جهة و بين المدن و القبائل البدوية من جهة أخرى تطورا كبيرا يتأثر بذلك اقتصاد المنطقة و مكانة المدن الاقتصادية و أيضا تجمعات القصور المجاورة بفعل ذلك تتحول محاور التجارة الهامة إلى منطقة وادي ميزاب وغيرها من المناطق.

الحقل الديني ووظائفه

إن دور الحقل الديني في كونه يضيفي الشرعية لمجمل الجوانب الأخرى وعلى الحياة الاجتماعية بصفة عامة، إذ أن الشرع يوجه نشاطات الحكام وأيضا بقية أفراد المجتمع، تؤثر الحياة الدينية على ممارسة الحكم السياسي وأيضا النشاط الاجتماعي والاقتصادي في القصور، إن وظيفة الإفتاء توضيح القوانين الشرعية تسمح بالرقابة على الحياة الاجتماعية بتعريف الحلال والحرام، الطيب والخبيث، المقدس والمدنس، يتصدر طليعة الفاعلين في هذا المجال على مستوى قصور تقرر والمناطق المجاورة فئة " الطلبة " كما يسميهم أهل المنطقة، يعيشون على احترام الناس يوجهون الحياة الاجتماعية ويشرفون على الحبوس والأوقاف.

مع تطور الحركة الصوفية تؤسس لنفسها زوايا أصبح لها امتدا وتأثير واسع، الزاوية التيجانية في تماسين خاصة مع القرن التاسع عشر تتوسع لتصبح ثاني مقر بعد مقرها الرئيسي في عين ماضي، تستقطب العديد من المريدين من سكان المنطقة تمارس تأثيرا روحيا كبيرا، زيادة على الزاوية القادرية، زاوية سيدي الهاشمي الزاوية سيدي العابد، إن العادات العربية الإسلامية تترجم في كل جوانب الحياة الاجتماعية حتى هندسة المنازل التي تستجيب لمتطلبات الخصوصية وقواعد السلوك الإسلامي، من خلال السلطة الروحية وتوزيع المساجد والجوامع في كل أحياء المدينة وفي كل القصور هذه المساجد الصغيرة كانت توزع حسب المجموعات الاجتماعية أو المذهبية أو الطرقية بها المدارس القرآنية

للصغار تقام فيها الصلوات الخمس تحت إشراف إمام يختار من صف الطلبة الأرحح عقلا والأكثر معرفة بالشرع، أما الصلاة الرئيسية في الجمعة والأعياد فتقام في المسجد الكبير يحضرها الناس من كل الأحياء، هذا النظام يأخذ أيضا طابعا متدرجا مثل جميع جوانب الحياة الاجتماعية المهيكله مع الطابع العمراني، الجامع الكبير هو مكان التوجيه العام الذي يربط هذا المجتمع المحلي بالعالم الإسلامي عن طريق إشعاع الزوايا.

التحولات في بداية الإحتلال وكسر النسق التقليدي

من هذه القراءة العامة للنسق المجالي التقليدي لمنطقة وادي ريغ الذي نلاحظ مبدأ التناغم والتدرج الذي يطبعه والذي لم يكن أبدا قائما على المصادفات أو العشوائية كمات قد يبدو في المجال الصحراوي، هذا التناغم الذي بدأ في التحطيم منذ الإحتلال الفرنسي، والذي سنورد ملامحه العامة والمنطق الذي طبعه.

الذي يهمننا في المرحلة الاستعمارية هو المنطق الاستعماري الذي خضعت له الصحراء المتميز بالنظام العسكري من جهة والمشاريع التوسعية الاستعمارية الكبرى في الصحراء وفي هذه المناطق بالخصوص تظهت في الاهتمام بعالم الواحات بإنشاء توسعات زراعية كبرى دعمتها مشاريع في الري وتصريف المياه الزائدة واستغلال الانحدار العام لوادي ريغ لإنشاء قناة التصريف التي تمكت من التوسع الفلاحي لإنتاج التمور كنمتوج أصبح تجاريا ونقديا يوجه للتصدير نحو أوروبا عبر مد خط السكة الحديدي عام 1914.

هذا العمل الاستعماري الذي ينخرط ضمن منظور استعماري أوسع شمل إمبراطورية فرنسا الإستعمارية في شمال إفريقيا كانت نتيجته على المستوى الاجتماعي هي تكسير البنية الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تتفعل وتعمل منذ قرون من الملامح العامة والتي أثرت بصورة أساسية على البنية الاجتماعية وذلك أولا بتحويل البدو في الصحراء إلى عاطلين بسبب القضاء على حركة القوافل والتجارة وفرض سلم نسبي فقد البدو موجبات وجودهم في الصحراء الواسعة، القوافل والحماية مما أعطى إشارة الانطلاقة لموجة التثبيت والتمدن العشوائية والمكثفة مما حول وبسرعة نظاما قبليا متشابكا نحو التثبيت والحضرية، والذي زاد في بؤس شرائح اجتماعية بكاملها¹⁶.

من جهة أخرى فقد كان اكتشاف النفط 1956 سببا هاما في تحويل قطاع كامل من منتجي التمور ذوي الخبرة الطويلة إلى عمال صناعيين مما أدى إلى انقطاع بين أجيال في خبيرة الفلاحة والسقي.

إن المجال العمراني في الصحراء الجزائرية هو مجال تميز بعراقته التاريخية وتنظيمه على أسس التنظيم الاجتماعي آنذاك تتحكم به قواعد عامة، أتى نتاجا كليا مع البنية الاجتماعية التقليدية للمجتمعات في الصحراء مستجيبا لظروفها البيئية والثقافية كونه مجالا مهيبا من مجهود وتراكم عبقرية هذه المجتمعات. كما جاء مستجيبا استجابة كلية للظروف المناخية القاسية التي تتميز بها الصحراء، وتحكمت به أيضا الظروف السياسية والإقتصادية والدينية والرمزية لتلك المجتمعات.

إن تحليل ودراسة الوضعية التقليدية هذه هي التي توفر لنا إمكانية المقارنة التاريخية من خلال التحولات الاجتماعية والمجالية التي شهدتها المجتمعات الصحراوية ومجالها العمراني، وتميز صور الإنقطاعات التي شهدتها مجتمعات الصحراء ومجتمع الدراسة بالخصوص مع ماضيها الاجتماعي والثقافي ابتداء من المد الاستعماري إلى ظروف التمدن وتطور مجال المدن المتنامي والذي انقطع مع كل صور التناغم مع البيئة الصحراوية والنظام الاجتماعي والثقافي والمرجعية الرمزية لسكان الصحراء مما يولد حالة الاغتراب لدى هذه المجتمعات في طور التحول.

هوامش ومراجع

¹ ابن خلدون (عبد الرحمان): مقدمة ابن خلدون، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب تونس 1984.

² ابن خلدون (عبد الرحمان): "كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، الطبعة الثانية المجلد السابع بيروت 1921.

³ Said BELGUIDOUM: **Urbanisation et urbanité au Sahara**, in Méditerranée, Revue géographique des pays Méditerranée n° 3-4 -2002 ; p 36.

⁴ Nadir Marouf : **lecture de l'espace Oasien**_. Sindbad .Paris 1980, P 12.

⁵ Said BELGUIDOUM ; **ibid** p 40.

⁶ من الملاحظات التي خلصتنا إذ تخفي قصور وتنشأ أخرى جديدة ولا يبق من القديمة إلا التسمية تتناقله الذاكرة الشعبية (دراسة ميدانية للقصور في المنطقة في أكتوبر 2002).

⁷ BERQUE Jaques : **Les villes, entretien interdisciplinaires sur les sociétés musulmanes**_. Paris, Ecole Pratique des Hautes Etudes, 1958.

⁸ FERAUD (Léan .CHARLE) : **Les BEDJELLAB sultans de Tougourt, Notes historiques sur la Province de Constantine**, in Revue Africaine, N° 23 Année 1882.

⁹ FERAUD (Léan .CHARLE) : **ibid**, p 66 .

¹⁰ Nadir Marouf ; **ibid**, p34.

¹¹ ناصر الدين سعيدوني . دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.

¹² Alain (Roméo): **Histoire ponumie et Tradition orale d'un Oasis arabe-berbère N'goussa** 1973-74 Maghelle, p32.

¹³ BISSON Jean; **les nomades des départements Sahariens**, 1958, Paris; p200-204.

¹⁴ ناصر الدين سعيدوني : مرجع سابق.

¹⁵ ابن خلدون: "كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق.

¹⁶ BISSON Jean; **ibid**, p203.